معلّمٌ في ذاكرة تلميذ

١/ ١١/ ١٤٣٦هـ

دعني أنتقل وإياك -أخي القارئ الكريم- بمشـــاعرنا وأشواقنا إلى طيبةَ الطيّبةِ، حيث النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يصلي بأصحابه رضوان الله عليهم، وكان فيهم معاوية بن الحكم السُّلَمي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي حدّثنا عن قصته التي وقعت حين عطـــس رجلٌ من القوم، قال: فقلـــت: يرحمك الله؛ فرماني القومُ بأبصارهم، فقلت: واثكل أمّياه! ما شأنكم تنظرون إليّ؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم! فلما رأيتُهم يصمّتونني -أي يسكتونني- ســـكتُّ، فلما صلى رســـولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فبأبي هو وأمـــي، ما رأيتُ معلمًا قبله ولا بعده أحســـنَ تعليمًا منه، فوالله ما كهَرني، ولا ضربني، ولا شـــتمني! قال: «إن هذه الصلاةَ لا يصلح فيها شيءٌ من كلام الناس، إنما هو التسبيح، والتكبير، وقراءة القرآن»(١).

هـــذا موقفٌ بين ســـيّد المعلّمـــين وإمامهـــم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وبين أَحد تلاميـــذه، عالجَ فيه الخطـــأَ الذي وقع فيه تلميذُه بأســـلوبٍ بقي أثرُه في وجدانه محفورًا، فصـــار يحدّث به بعد ذلك حديثَ المعجَب بأســـلوب

(١) رواه مسلم (رقم٥٣٧).

معلّمه، وطريقة إرشاده! استدعاه، ثم أخبره بالخطأ، ولم يبادره بالتعنيف أمامَ النـــاس، ولا بالتبكيت بينه وبين تلميـــذه، ولا عبس في وجهه، ثم شرح له وجـــه الخطأ الذي وقع فيه، وبيّن الطريقـــةَ الصحيحة، كلّ هذا جعلـــه يقول وبصوت مســـموع: «فبأبي هو وأمي، ما رأيـــتُ معلمًا قبله ولا بعده أحســـن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني!» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

تذكرتُ هذا الموقف، وأنا أستمع لصديقي الذي يحدّثني -وبمرارة- عن موقفٍ حصل له مع أحد أســـاتذته في المرحلـــة الابتدائية -أي إنهم أطفال صغار-، حيث دخل الأســـتاذُ ومعه عصًا غليظة، فأمرني وبعضَ الزملاء بالقيام والاصطفاف صفًّا إلى الجدار، وبدأ بضربنا واحدًا واحدًا، ومن شـــدة الضرب فإن أحد مَنْ كان ينتظر دورَه في هذا المشـــهد أُغمي عليه قبـــل أن يَصِله الدَّور!! ثم يواصل صديقـــي حديثَه قائلًا: إلى هذه اللحظـــة -وقد مضى على هذا الموقف قرابـــة الأربعين عامًا- لا أدري لِمَ ضُرِبْنا؟! وما الجُـــرْم الذي أخطأنا فيه لنُعاقَب هذا العقاب؟! ووالله كلما تذكّرتُ أحاديثَ الصفح والعفو في عرَفة والعشر الأواخر يلوح لي ذلك المعلّم، فأجاهد نفسي، وأغالبها على العفو عنه؛ فلا أستطيع، أو أجد كُلفة شديدة في هذا!

تأمـــل الفرق -أخي القارئ- بين الموقِفـــين! كلاهما بقي في الذاكرة، لكن شتّان بينهما!

فرقٌ بين تلميذ يتحدّث بشوق وحب عن معلّمه الذي أرشده، وبيّن لـــه وجهَ الصواب، ولم يواجهه بما يكره، وبـــين تلميذٍ ترى انعقادَ جبينه،

وتسمع حشرجةَ صدره، وتشـــعر بضيق نَفَسِه وهو يتحدث عن مدرس ظلَمه، وضرَبه بغير حق!

يمـــرُّ علينا -معشرَ المعلمين والمعلّمات- مئـــاتٌ وربما آلافُ الطلابِ في مدارســـنا وجامعاتنا، وقد لا يبقى في ذاكرتنـــا منهم إلا القليل، لكن من المؤكّد أننا -وبفضل الله- نستطيع أن نحفر أسماءَنا في ذاكرة تلاميذنا بحسنِ تعاملنا، وجميلِ أخلاقنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، فليس بالعلم وحْده نستطيع أن نكســـب تلاميذَنا، ونجعل ذلك وسيلةً لإيصال الحق والعلم الذي نعلّمهم إياه، بل هذا -كما يشهد التاريخُ والواقع- لا يكفي ما لم يقترن بخُلُق حســـن، ورحمةٍ بالمتعلِّم، وفي التنزيل -في معرض الثناء على الخـــضر عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[الكهف:٦٥].

لقـــد كنا طلابًا قبل أن نكون معلِّمين، فلننظـــر في الذي كنا نحبّه من أساتذتنا وشيوخنا من جميل الفعال؛ فلنفعله مع طلابنا، فإنهم يحبون هذا منّا، والعكس بالعكس.